المحاضرة الثانية

نظرية المعرفة

1-اللاأدرية

2-التجريبية

3-العقلانية

4-المثالية

5-الواقعية

.....

1-اللاأرية: السؤال الأول الذي يجب طرحه بصدد المعرفة يتعلق بإمكانية المعرفة، هل الفكر البشري قادر على تحصيل الحقيقة أو هل لديه يقينيات مشروعة. إذا كنا لا نأمل في تحصيل الحقيقة في أي مجال نكون لاأدريين. اللاأدرية تقوم تحديدا على توقيف حكمها على كل الأشياء. الموقف النقيض هو الاعتقاديةDogmastisme، إنها تقوم على الدفاع عن أننا نستطيع معرفة الحقيقة. اللاأدرية إغراء دائم بالنسبة للفكر البشري بمجرد التفكير ومغادرة الميدان الركين ليقينيات الحس المشترك. إنها تمظهر قلق فطري لدى الإنسان وعدم رضى أبدي. ولكن بما أنها تدفع القلق إلى حدوده القصوى وتقيمه كنوع مطلق، فإنها تصل إلى فقدان للأمل الفكري.

إذا ألقينا نظرة على تاريخ الفلسفة الغربية نلاحظ نوعا من التذبذب المستمر بين الاعتقاديةواللاأدرية. كل عمل عظيم للفكر الاعتقادي يكون متبوعا بأزمة من التخاذل وفقدان الأمل. الفلاسفة الأوائل الإغريق طاليسوهيراقليطسوبارمينيدسوديموقريطس، انطلقوا من محاولات مختلفة من أجل تفسير الطبيعة. لكن سرعان ما أتى السوفسطائيون (بروناغوراسوجورجياس) الذين أقاموا صفحة بيضاء خلال قرن من العمل. سقراط أنقذ الفلسفة. وأفلاطون وأرسطو بنوا الأنساق الأكثر قوة والتي لم يسبق إليها الفكر البشري. ولكن أرسطو يختف بعد حتى ظهر بيرون، الذي أعطى اسمه لمدرسة كاملة تعتبر الشك كحكمة وحيدة. خلال العصر الوسيط كله، المفكرون المسيحيون الكبار المنقادون بالإيمان، مددوا وحسنوا الفلسفة القديمة. ولكن في الأزمنة المعاصرة مونتاني بعث اللاأدرية الإغريقية وقدم الشك في الفترة المعاصرة. حركة العقرب تسارعت، ديكارت أطلق الفكر الميتافيزيقي.

ولكن هيوم فك الديكارتية بنقد لاذعواستقر في اللاأدرية. نفس المغامرة مع كانط، لقد أعطى للفلسفة انطلاقة جديدة، ولكن مع ذلك اللاأدرية ستبدو في شكل الوضعية. نفس المغامرة أخيرا مع هيجل الأكثر اعتقادية للفلسفات المعاصرة. إنحلالالهيجيلية تبخر تحت أعيننا إنها فلسفة المجرد، الشكل المعاصر للاأدرية الخالدة.

إذا أردنا أن نعطي تعريفا يصلح على كل أشكال اللاأدرية نقدم التالي: حركة انحلال نزعة اعتقادية. ونفهم هكذا بأن هناك أشكالا مختلفة من اللاأدرية حسب النزعات الاعتقادية التي تناقضها.

ولكن إذا أردنا أن نكون معرفة باللاأدرية، فيجب الرجوع دائما إلى اللاأدرية الإغريقية لأن كل اللاأدريات الأخرى تتوقف عليها. اللاأدرية الإغريقية تأخذ أربع أشكال رئيسية:

الشكل الأقصى يوجد لدى بيرون الذي يرى أنه لا يجب الاعتقاد في أي شيء، التوقف عن الحكم والعيش في لا مبالاة كاملة الاتراكسياAtraxie (طمأنينة النفس) هي الحكمة بالنسبة لبيرون. لقد كان هدفه هو تجريد الإنسان، بمعنى يتجرد من إنسانيته. بعد بيروناللاأدرية أصبحت جدلا فكريا خالصا، موجهة أساسا ضد اعتقادية الرواقيين.

الأكاديمية الجديدة حيث أن قادتها على التوالي هما أرسيسيلاسوكارنديار كانوا يعلمون الاحتمالية. أي تصور لا يكون بديهيا، لسنا متأكدين أبدا أننا في قلب الحقيقة، ولكن بعض التصورات تكون محتملة، إنها تكفي جيدا للحياة.

اللاأدرية الكلاسيكية حيث أستاذها هو أينسدامAenésidème هو ظاهراتي. اللاأدرية قبلت بالاعتقادات في المظاهر، باعتبارها حاضرة مباشرة في الشعور ومقابلة له.

المرحلة الأخيرة من اللاأدرية الإغريقية تتمثل في التجريبية، التي نجدها لدى سيكتوسأومبركوس وهي التطور المنطقي للظاهراتية.

حجج اللاأدرية:

1) تناقض الفلاسفة، وبشكل واسع تعددواختلاف الآراء الإنسانية. الناس ليسوا متفقين على أي موضوع.

2) الأخطاء، وخاصة أخطاء الحواس، الأحلام، الهلوسات، السكر كلها تجعلنا نتساءل كيف نضمن لأنفسنا أننا لم نخطئ ؟

3) نسبية المعرفة: يمكن أن تأخذ شكلين: أولا كل شيء نسبي بالنسبة للأشياء الأخرى، ذلك أنه لا شيء في الكون معزول، ومفصول عن المجموع. من المستحيل معرفة شيء دون معرفة كل الأشياء الأخرى. ومن جهة أخرى الشيء المعروف نسبي بالنسبة للذات التي تكون دائما فردا له عمر معين، وحالة صحية معينة ويوجد في وضعية معينة من المستحيل إذن معرفة أن الشيء يكون هو ذاته، في استقلال عن علاقته بنا.

4) الحلقة المفرغة: إنها حجة منطقية خالصة. إذا لم تكن هناك قضية مبرهنة فلا يوجد أي سبب لتبنيها. إذا برهن عليها، فيكون ذلك بواسطة مبدأ ولكن هذا المبدأ يحتاج إلى مبدأ بدوره وهكذا نتراجع إلى ما لا نهاية. [1]

1- **التجريبية**: هناك تقارب بين التجريبيةواللاأدريةفاللاأدريأوميركوس تجريبي، وهيوم يعتبر لاأدريا. النقطة المشتركة بين التجريبيين جميعا هي أن التجربة هي وسيلة المعرفة.

في الفلسفة الإغريقية، التجريبية ليست بعد سوى حسية. هيراقليطس أسسها على معطيات الحواس ودافع عن فكرة أن الكائن صيرورة خالصة. كل شيء يجري، لا شيء يبقى. تلميذه بروتاغوراس لاحظ أن الإحساس خاص بتكوين حواسنا وأعلن أن " الإنسان مقياس كل شيء ". صيغة كاملة نهائية للنسبيةوالإنسوية. أبيقور أخيرا مشهور بأخلاق اللذة. ولكن هذه الأخلاق لا تفهم إلا بوصفها نتيجة لنظرية حسية في المعرفة. ما هو الخير ؟ليس شيئا آخر غير ما تعلمنا إياه الحواس، وإذن اللذة. في العصر الوسيط، التجريبية يمثلها بشكل رئيس أوكامOccam وأخذت اسم الإسمية. أطروحته المركزية هي أنه لا يوجد في الفكر مفاهيم مجردة وعالمية،تمثل الماهيات ولكن فقط كلمات أو أسماء حيث أن المعنى يقوم في تعيين أفراد معطاة بواسطة التجربة. هذا المذهب الذي يحذف العقل سيدخل إلى التجريبية ويصبح هيكلها الأساسي.

التجريبية الإنجليزية يمكن أخذها ككل ذلك أنها تقدم انسجاما ملحوظا ولم تتنوع خلال ثلاثة قرون. لوك لازال واقعيا، باركلي يعلم اللامادية. وهيوم ظاهراتي، بنتام استخلص نتائج أخلاقية من الظاهراتية مع قياسه للذات. ولكن المبادئ النقدية متطابقة لدى الجمع، وهيوم هو الذي سيصوغها بشكل نهائي:

1) لا يوجد في الفكر أفكار فطرية ولا مفاهيم مجردة.

2) المعرفة تختزل إلى إنطباعات حسية وإلى أفكار هي نسخ باهتة لهذه الانطباعات بمعنى الصور.

3) الكيفيات الحسية ذاتية.

---

[1]Royer Vernaux ,Epistemologie Générale , Beauchesne , Paris .

4) العلاقات بين الأفكار تختزل إلى ترابطات.

5) المبادئ الأولى وتحديدا مبدأ السببية هي ترابطات من الأفكار صارت معتادة.

6) المعرفة محدودة بالظواهر وكل ميتافيزيقا تكون مستحيلة .

التجريبية انتهت في فرنسا إلى كوندياك الذي بنى نسقا حسيا أرجع كل معرفة إلى الإحساس المتحول إلى طرق مختلفة.

الوضعية تنظم إلى التجريبية مع كونت. "كل قضية، يقول كونت، ليست مختزلة بشكل حاسم إلى بيان واقعة، لن يكون لها أية قيمة لا واقعية ولا فكرية ". الوضعية ترجع المعرفة إلى دراسة الظواهر الطبيعية وقوانينها حسب إجراءات المنهج التجريبي.

والحجج التي يستند إليها التجريبيون كثيرة، فلوك مثلا يقول بأنه لا توجد أفكار فطرية في الذهن ذلك أن الأطفال والبدائيين والمجانين ليس لديهم أفكار إنسان بالغ.

بالنسبة لهيوم فقد برهن على تجريبيته بواسطة فكرة السببية حيث بين أنه لا توجد علاقة اقتران بين الحوادث، فإذا لاحظنا تتابع حادثتين فإننا لا نرى تأثير إحداهما في الأخرى، وكل ما هنالك أن المشاهدة المتكررة لتتابع الحادثتين هي التي تجعلنا نقول عن الحادث الأول سببا والحادث الثاني مسببا.

2- **العقلانية:** العقلانية هي الإتجاه المناقض للتجريبية، حتى لو جعلت العقلانية مكانا للتجربة، فهي ترفض أن يكون لها قيمة علمية. في الفلسفة الإغريقية، العقلانية أعطت حركتين بارزتين: الأولى ترجع إلى بارمنيدس الذي رأى أن طريق التجربة لا يقود سوى إلى الخطأ، العقل وحده يقود الحكيم نحو قلب الحقيقة التي تشكل دائرة جميلة. الحقيقة الأولى التي يطرحها العقل هي مبدأ الهوية. الكائن موجود، اللاموجود غير موجود. الأخلاق الرواقية تستند على ميتافيزيقا من نفس النمط. الحكيم يكون لا مباليا بظروف وحركات الحساسية، إنه يجهد في أن يكون غير محس باللذة والألم، إنه يستأصل أهواءه ولكن لماذا؟ لأن السعادة تكمن في الفضيلة، والفضيلة تقوم في العيش حسب العقل. وأن العقل أخيرا وحتى الإله ملازم للعالم والإنسان. العيش في توافق مع العقل، هو أن تكون إلها.

في الفلسفة الحديثة العقلانية ظهرت مع ديكارتواتخذت أشكالا إلى حد ما خالصة لدى ديكارت تتعبر بشكل أساسي بفكرة الرياضيات العالمية ونظرية الأفكار الفطرية. الرياضيات هي بالنسبة لديكارت نمط العلم، ذلك أنها في نفس الوقت صارمة وتقدمية. من أجل أن تكون لغة المعرفة علمية، في أي ميدان كانت، وخاصة في

الفيزياء والميتافيزيقا يجب أن تنطلق من أفكار واضحة ومتميزة مدركة بالحدس وناتجة عن حقائق بواسطة نظام، مثل سلسلة النظريات الهندسية. ديكارت يمنح دون شك دورا للتجربة في الفيزياء، ولكنه يختزله إلى الآتي: إعطاء إشارة عن وجود نتائج محصلة قبليا عن المبادئ، التجربة لا تمنح أي موضوع للعالم إذن. أما عن أصل الأفكار، فديكارت يتبنى أن عددا لا بأس به هو عارض مثل الإحساسات، وخيالي مثل التخيلات. ولكن هذه الأفكار ليست واضحة ولا متميزة، ولا يمكن أن تدخل مجال العلم إذن. الأفكار الفطرية وحدها تكون واضحة ومتميزة، وخاصة فكرة الامتداد الذي هو موضوع الهندسة.

الأفكار الفطرية موجودة فينا منذ الأصل، ليس كأفعال ولكن كقوى مثل الكرم الذي هو فطري لدى بعض الأسر.

فلاسفة آخرون عقليون أمثال سبينوزا وليبنتز وكانط الذي على يديه تعمقت العقلانية. كانط جعل المعرفة ممكنة بتعاون التجربة والعقل. العقل يتضمن مبادئ قبلية وصورتين قبليتين هو المكان والزمان، والتجربة تقدم معرفة بعدية. والمعرفة لا تتم إلا بتعاون الحساسية والفاهمة. الحساسية تقدم معطيات ذاتية ومشتتة والفكر هو الذي ينظم تلك المعطيات ويعطيها شكلها الموضوعي .

3- **المثالية:** هناك أبوة بين العقلانية والمثالية، وانحدار للأولى نحو الثانية، ذلك أن الوسيلة الممتازة لبلوغ الواقعي الذي يكون عقلانيا هو افتراض أن الواقعي يتكون بفعل العقل. مع ذلك لا يمكننا المطابقة الخالصة والبسيطة بين التيارين. أولا لأن المشكل الذي يجيبان عليه ليس واحدا. بالنسبة لأحدهما هو وسيلة المعرفة وبالنسبة للآخر هو مأخذها.

ثم لأن التاريخ يقدم ارتباطات مختلفة عقلانية واقعية مثلا لدى ديكارت، ومثالية تجريبية مثلا لدى باركلي .

المثالية مذهب حديث. تعزى أحيانا إلى أفلاطون أبوة هذه الحركة، ولكن هذا خطأ. هناك بكل تأكيد لدى أفلاطون نظرية في الأفكار، ولكنها نظرية واقعية، إنها أكثر واقعية من الأشياء الحسية التي ليست سوى ظل بمعنى مشاركة بعيدة. روحنا شاهدت عالم الأفكار قبل أن تسجن في الجسد، وأفكارنا هي تذكر لهذا الحدس المباشر. من أجل ترجمة نظرية الأفكار كمثالية، يجب قراءة أفلاطون بنظارات كانط. أب المثالية هو ديكارت. ومن الخطأ أيضا تقديمه هو ذاته كمثالي، ذلك أن نتائج نسقه واقعية. ولكنه وهو يكون نسقه، زرع بذور المثالية التي توسعت بعده. أولا ديكارت بدأ فلسفته بالشك المنهجي. لقد استبعد كل اليقينيات التي يمكن اكتسابها، وخاصة

تلك التي انبنت على معطيات الحواس. هكذا وجود العالم لم يبد لها بديهيا، فلا يمكن تنبيه إلا إذا تمت البرهنة عليه.

ثانيا: المبدأ الأول لفلسفته هو الكوجيتو. لقد طرح أن الفكر هو الحقيقة الوحيدة التي تعطى للفكر بطريقة مباشرة وأكيدة. كل حقيقة أخرى يجب أن تختزل من هذه الحقيقة الوحيدة .

ثالثا: ديكارت منح للفكر أفكارا فطرية التي هي في ذاتها لوحات، بمعنى أشياء للمعرفة.

فلاسفة آخرون أمثال مالبرانش وباركليولبينتز قدموا فلسفات مثالية.

ولكن مع كانط تتكون وتتحدد المثالية. كانط سمى موقف ديكارت بالمثالية الإشكالية، وموقف باركلي بالمثالية الاعتقادية. وموقفه الخاص بالمثالية المتعالية أو النقدية. الأشياء لا تعطى لنا من نفسها بل نحن نكونها كما تبدو لنا بفضل تكويننا الذاتي. فنحن إذن من ينظم الظواهر المختلفة المعطاة من قبل الحساسية، ونكون عالما موضوعيا يربط الظواهر حسب قوانين العقل التي يسميها كانط بالمقولات.

المثالية بعد كانط ستأخذ اتجاهين: الأول موجه من طرف هيجل في ألمانيا. ورونوفيي وهاملين في فرنسا. والثاني موجه من طرف فيخته ولاشولييوبرونشفيك.

إذا أردنا أن نحدد المثالية فمن الخطأ تعريفها كما تفعل الكثير من الكتب على أنها تنفي واقعية العالم الخارجي. نجد هنا نظرة ضيقة لا تصلح إلا على مثالية جزئية كتلك التي لدى باركلي. المثالية بعد كانط مطلقة، بمعنى التي لا تعني فقط بالعالم ولكن أيضا بالإنسان والروح والله. إنها نظرية في الكائن وإذن ميتافيزيقا أو أنتولوجيا كاملة. والمثالية لا تنفي أبدا، واقعية العالم. ما تنفيه هو أن العالم يوجد في ذاته، بمعنى خارج كل معرفة أو كل تصور. ولكن بعيدا عن نفي واقعيته فإنها تقيمه على العكس، على نشاط الفكر. إنها تنفي حتى وجود الروح والله في ذاته، وتحددها كوعي أو بأفعال أو وظائف أو قوانين المعرفة.

4- **الواقعية**:على النقيض من اللاأدرية الواقعية تدعم القول ببلوغ الحقيقة. إنها تضع مكانا للشك في الحياة العقلية، ولكنها تعتبر الشك عالميا كموت للذكاء. إنها لا تجهل إمكانية الخطأ، ولا تردد الأخطاء، ولكنها تعتبر الخطأ كعرض أو شذوذ. باختصار إنها تتبنى أنه لدينا يقينيات مشروعة. إنها إذن موقف دوغمائي، زيادة على ذلك الواقعية تتعارض مع التجريبية والعقلانية. بأية وسيلة نعرف الحقيقة ؟ هل بالتجربة وحدها ؟ لا، هل بالعقل وحده؟ لا أيضا. ولكن بالتجربة والعقل معا.

أما فيما يتعلق بمأخذ المعرفة، الواقعية تتعارض مع المثالية. إنها تدعم أن الفكر البشري يمكن أن يعرف الكائن في ذاته، وأن الحقيقة تكمن تحديدا في تطابق الفكر مع ما هو كائن.

في الواقعية نجد اتجاهين أساسيين: أحدهما ينحدر عن أفلاطون موجه بالقديس أوغسطين والقديس بونفوتورا وصل إلى ديكارت، وإلى ماليرانش وإلى أنطولوجيي القرن 19. الإتجاه الآخر ينحدر عن أرسطو وبلغ أوجه عند توما الاكويني، وظل حيا خلال قرون بواسطة المدرسة التوماوية.